Majallah Al-Qism Al-Arabi
University of the Punjab,
Lahore - Pakistan.
No.16, Issue: 2009

مجلة القسم العربي
جامعة بنجاب، لاهور- باكستان.
العدد السادس عشر، 2009م.

اللغة والأدب عند ابن خلدون

د. فضل الله
الأستاذ المساعد، كلية اللغة العربية
الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد.

ABSTRACT

It goes without saying that Abdur Rehman Ibn Khaldun is a genius Arab scholar having a prominent status among the scholars. He is an encyclopedic personality having very vast knowledge and extensive reading. He is considered the founder of the social sciences. He is also considered a reformist in the psychiatric and pedagogical disciplines. He discussed in his Muqaddima many issues and dealt with many branches of the Arabic Language studies such as syntax, linguistics, figures of speech and Arabic Literature. He referred to the opinions of his predecessors and made his contribution also. He was both a reformist and the advocator of the legacy simultaneously.

This article shed light on the opinions of Ibn Khaldun about the language. He defined the language offering his own definition and philosophy and explained how the words change semantically in the due course as a consequence of mixing of the native speakers with the non-native ones. Similarly the article discussed the language command as to how it can be gained, in the opinion of Ibn Khaldun. It is a basic issue in his opinion to which he attaches a great importance. Similarly he discusses language acquirement tactics suggesting two ways, i.e.

1) To live in the language environment listening to the native speakers.

2) To memorize its passages and practice.

Ibn Khaldun observed a strong relation between the language and the civilization opining that there is direct proportion between the advancement of a civilization and its language. The more the advancement of the civilization the more the advancement of the language and vice versa.

Ibn Khaldun treated the poetry in detail, giving various definitions of it according to its prosody, form and style. He also gave his opinion about the composition of a Qasida (poem) pointing that every verse has an independent status, disagreeing with those who think that all the verses of Qasida (poem) constitute a single unit dealing with only one theme. He declared the literature as a complimentary element for civilization, as it plays its role after the fulfillment of economic needs and he also declared that the literature plays an important role to protect the culture of a nation .

The article concludes that Muqaddima is not a book of literature or criticism. That is why it is observed that many of his opinions have been gained from the Andlosian (Spanish) scholars. The literary issues treated by him lack proper organization some times as they are incomplete in other cases, but these flaws do not lower the prestige of Ibn Khaldun, because he is one of the leading scholars of literature and one of the prominent revivalist (reformers) of written Arabic. He attached importance to linguistic sciences and literary issues.

What he wrote in his Muqaddima about the language and literature is the best proof of his knowledge ability and specialization in both language and literature.

تمهيد

نحمدك اللهم حمد الشاكرين ونصلي ونسلم على رسولك الأمين وعلى آله ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد: فإن اللغة هي جسر التواصل بين أفراد المجتمع ، ولولاها لعاش كل فرد وكأنه في جزيرة منعزلة. وقد تكلم العلماء عن اللغة وعن وظيفتها ودورها في حياة الأمم، وعلاقة هذه اللغة بالفطرة والتكوين النفسي.

لاريب أن ابن خلدون يحتل مكانة متميزة في تراثنا العربي والإسلامي، وينظر إليه على أنه صاحب مشروع ورؤية حضارية خاصة ، وهو يعد عبقرية عربية متميزة ، فقد كان عالماً موسوعياً متعدد المعارف والعلوم. وهو رائد ومجدد في كثير من العلوم والفنون ، فهو المؤسس الأول لعلم الاجتماع، وإمام ومجدد في

ولد ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بتونس في غرّة رمضان 732هـ من مايو 1332م[2]، نشأ في بيت علم ومعرفة وهو واحد من أبرز المفكرين العرب في المغرب العربي في مجالات الفكر والسياسة والأدب والعلوم الاجتماعية والتاريخية، فقد أصبحت موضوعاته الفكرية والاجتماعية مجالاً هاماً من مجالات البحث العلمي في جامعات العالم .

إذا كان من المسلَّم به أن ابن خلدون هو أول من أرسى قواعد فلسفة التاريخ وأنه في سعيه ذاك قد اشتق من علم التاريخ علماً آخر غدا قائماً بذاته هو "علم العمران" فإن الناظر في مقدمة كتاب العبر إذ يقف فيها ما حظيت به القضايا اللغوية والأدبية من فحص وتحليل ليتساءل عن أسرار هذه الحيرة المعرفية التي قادت فيلسوف علم التاريخ وواضع علم الاجتماع إلى أن يعتني الاعتناء الكلي بالمعارف اللغوية والأدبية فيستكشف حقائقها ويفحص ظواهرها مستكنها نواميسها الخفية . وقد اكتشف ابن خلدون خلال بحثه علاقة المعارف اللغوية والأدبية فيما بينها وبيّن منـزلة علوم اللغة بَـين سائر العلوم البشرية كما أنه قام بالتعريف والتحليل ثم بالنقد .

لم يترك ابن خلدون شيئاً من معارف عصره دون أن يتطرق له، فجاءت المقدمة بمثابة موسوعة خارقة، تجلت فيها الأصالة والمعاصرة والاستشراف العلمي الاستدلالي، ولذا نجد أن ابن خلدون خير من عرَّف بموسوعته من خلال مقولته "أنشأت في التاريخ كتاباً، رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجاباً، وفصلته في الأخبار والاعتبار باباً، وأبديت فيه لأولية الدول والعمران علالاً وأسباباً... فهذَّبت مناحيه تهذيباً، وقرّبته لأفهام

وهذا البحث محاولة متواضعة في كشف آراء ابن خلدون عن علوم اللغة العربية وآدابها؛ لأن ابن خلدون قد اشتهر كمؤسس لعلم الاجتماع والعمران، وقلّما سُلطت الأضواء على جهوده وآرائه في مجال اللغة والأدب رغم أنه عني كثيراً بدراسته اللغة والأدب في صباه وشباه واستفاد من أعلام اللغة والأدب وعقد في آخر الباب السادس من مقدمته اثني عشر فصلاً تستغرق زهاء مائة صفحة في علوم اللسان العربي، فلم يغادر أي فرع من فروع اللغة العربية وآدابها إلا تكلم بإفاضة، وما كتبه في هذه الفصول لا يدل على قوة تمكنه وسعة اطلاعه في اللغة العربية وآدابها فقط بل يسمو به إلى مستوى الأئمة وكبار المتخصصين في هذا المجال .

اقتضت طبيعة البحث أن يشتمل على تمهيد ومبحثين وخاتمة . أدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لما فيه الخير والسداد فإنه سميع مجيب.

المبحث الأول : ابن خلدون بين التجديد والتقليد في مجال تقسيم علوم اللغة العربية.

من المعلوم أن العرب قد اهتموا بدراسة علوم اللغة العربية والأدبية اهتماماً بالغاً منذ بداية الحركة العلمية في إطار النهضة العربية الإسلامية، فكانت جهودهم في مجالات الأصوات وبناء الكلمة وبناء الجملة والمفردات، وكان المشتغلون بالعلوم اللغوية يصنفون إلى مجموعتين: تهتم المجموعة الأولى ببنية اللغة وتهتم المجموعة الثانية بمفردات اللغة ودلالاتها، وقد وصف مجال البحث عند المجموعة الأولى بأنه "النحو" أو "علوم العربية" بينما وصف مجال بحث المجموعة الثانية بأنه "اللغة" أو "علم العربية" أو"فقه العربية" أو "علوم اللسان" أو "علوم الآدب" كما وجدت إلى جانب هذا محاولات لبيان ترابط هذه المجالات وإيضاح النسق الذي يتخذه كل منها في إطار البحث اللغوي العام (4) .

قرأ ابن خلدون كل ما كتب حول اللغة العربية وآدابها واستفاد من العلماء البارزين في هذا المجال لأنه كان يدرك أن اللغة من مقومات العمران البشري، فبدأ يتحدث عن تحصيلها وأحوالها الطارئة عليها لأسباب خارجية وداخلية، وينظر إلى اللغة والأدب نظرة شمولية ، ويهتم بالكليات والجزئيات بعمق فكر وقوة نظر. وكانت استفادته ذكية لأنه كان يجمع بين التجديد والتقليد.

وقد تناول في مقدمته عديداً من العلوم التي صنفها تصنيفات كثيرة، وكان لعلوم اللسان النصيب الأوفر والجزء الأهم حيث بنى اللسان العربي على أربعة أركان ورتبها مراتب متفاوتة ومختلفة حسب المقاصد التي يقصدها المتكلم وهي "اللغة والنحو والبيان والأدب،ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة". [5]

وأول من حاول لترتيب المحتويات اللغوية في نمط متكامل هو أبو نصر الفارابي[6] (260-339هـ) في كتابه "إحصاء العلوم" بحيث أطلق على كل العلوم اللغوية اسماً شاملاً لها هو "علم اللسان". ويتألف عنده من عدة مجالات، يقابل "علم الألفاظ المفردة" في تصنيف الفارابي علم الدلالة في التصنيف الحديث. ولكن أبا البركات الأنباري[7]، قد أطلق على المعارف اللغوية مصطلح "علوم الأدب" وهي عنده النحو واللغة وعلم أصول النحو والتصريف بالإضافة إلى العروض والقوافي وصنعة الشعر وأخبار العرب .

وقدم أبو يعقوب السكاكي[8] (ت: 626هـ) في كتابه "مفتاح العلوم" تصنيفاً لعلوم اللغة يقوم على أساس "مقالات الخطأ" فالخطأ اللغوي يمكن أن يكون في بنية الكلمة المفردة وهذا موضوع "علم الصرف" وقد يكون في تأليف مفردات داخل الجملة وهذا موضوع "علم النحو" وقد يكون في مطابقة العبارة للمعنى وهذا موضوع علمي "المعاني والبيان" واعتبر السكاكي كل هذه العلوم المذكورة مجموعة علوم متكاملة .[9]

وكان أبوحيان النحوي[10] أول من أطلق على المشاغل المتصلة بالظاهرة اللغوية مصطلح "علوم اللسان العربي" وهي

1. العلوم اللسانية عند ابن خلدون:

اختار ابن خلدون مسلك أبي حيان النحوي في استخدام مصطلح "علوم اللسان العربي"(11) وتصرف فيه بأن اشتق منه العلوم اللسانية ولكنه اجتهد في مضمونه فأقام تصوراً تصنيفياً وبنى بنية رباعية تكشف تصوراً نظرياً يحدد المراتب التي تتجلى عليها الظاهرة اللغوية إطلاقاً. وخصص لبيان هذه العلوم الفصل الخامس والأربعون من آخر أبواب المقدمة بعنوان "في علوم اللسان العربي" .

ذكر ابن خلدون في بداية الفصل هذه الأركان الأربعة (اللغة ، النحو ، البيان والأدب) بدون إشارة إلى علامات هذه العلوم وسماها فناً(12) ثم استأنف الحديث عند التفصيل وسماها "علم اللغة" و"علم النحو" وعلم البيان" و"علم الأدب" .

أ: علم النحو :

قدّم ابن خلدون "علم اللغة" في مقدمة فصله أثناء الإجمال وعند ما قصد التفصيل عكس المراتب فبادر بعلم النحو وثنّى بعلم اللغة ، وبيّن سبب تفضيل علم النحو من علم اللغة بقوله "إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل عن المفعول والمبتدأ من الخبر، ولو لاه لجُهل أصل الإفادة ... وإذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك اللغة". (13)

حاول ابن خلدون استقصاء الأسباب التاريخية لنشأة علم النحو، فوجد أن السبب الرئيسي وراء العلوم اللغوية هو حفظ مقاصد الشريعة، لأن اللغة العربية قد طرأ عليها التغير فقد خيف أن "ينغلق القرآن والحديث على المفهوم"(14) لأن "مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب، ونَقَلتُها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغاتهم ، فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة" (15).

وقد عرّف ابن خلدون علم النحو تعريفاً جامعاً ومانعاً وجعل هذا العلم علماً استنباطياً مداره الاستعمال اللغوي الذي يعبر عنه صاحب المقدمة بمجاري الكلام ، وهذا معناه أن النحو يسعى إلى تأسيس "المعيار" انطلاقاً من "الاستعمال" وهذا التأسيس مداره استنباط "القوانين" التي تتحكم "الملكة" اللغوية ، فغاية النحو استخراج النواميس الخفية المحددة للحدث الكلامي على لسان المجموعة اللغوية المتكلمة به ، فيوضح ابن خلدون هذه العملية بأن العرب لما خافوا من اللحن والفساد في اللغة "استنبطوا من مجاري كلامهم قوانين تلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع، ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات ، فاصطلحوا على تسميته إعراباً ، وتسمية الموجب لذلك التغير عاملاً وأمثال ذلك وصارت كلها اصطلاحات خاصة فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو". (16)

ب : علم اللغة:

ألقى ابن خلدون ضوءاً على ثاني الأركان في علوم اللسان وهو "علم اللغة"، وعرّفه بقوله "(علم اللغة) هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية"(17) المراد من الموضوعات أجزاء اللغة وضعاً، ولقد أطلق القدامى على عملية جمع المادة المعجمية مصطلحات عدة بدأها أبو الطيب اللغوي(18) بمصطلح "اللغة" ثم قال ابن فارس(19) فقه اللغة ، وتبعه فيه الثعالبي(20)، وأطلق الرضي استرابازي(21) مصطلح "علم اللغة" واقتفى أثره أبو حيان النحوي وابن خلدون. وهذا العلم (علم اللغة) عند ابن خلدون هو عبارة عن تاريخ المادة اللغوية بعد استقرائها في مظان الاستعمال، فهو بذلك شبيه علم المعاجم في التصور الحديث. تناول ابن خلدون في البداية تاريخ هذا العلم بدءاً من الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي كتب كتاب "العين" وأثنى عليه

هذا الركن الثاني من علوم اللسان، إذا نظرنا إليه بمعيار الزمن كان سابقاً لعلم النحو ؛ لأن مداره الألفاظ من حيث هي أجزاء، ومدار النحو التركيب من حيث هو كل، والجزء سابق للكل في أصل النشأة، ولكن من حيث الأهمية النحو أسبق اعتبارياً لاسبقاً زمنياً، فالموازنة بين العلمين ذو بعد وظيفي، وهذا ما أدركه ابن خلدون إدراكاً كاملاً إذ يقول: "والذي يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو إذ به تبين أصل الإفادة، وكان من حق علم اللغة التقدم لولا أن أكثر الأوضاع باقياً من موضوعاتها لم يتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسندإليه فإنه تغير الجملة ولم يبق له أثر فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك اللغة" (24).

ج: علم البيان: (البلاغة)

تناول ابن خلدون علم البيان بعد علم اللغة، وهذا ركن ثالث في علوم اللغة. من المعلوم أن علم البيان يُقصد به عنده علم البلاغة الذي يتكون من ثلاثة فروع رئيسية: علم المعاني والبيان والبديع. وبهذا أطلق ابن خلدون على العلم الكلي اسم أحد فروعه وهو علم البيان مقتفياً أثر السكاكي الذي هذّب مسائله ورتّب أبوابه. وهذا العلم يبحث في أحوال الدلالة كما يقتضيها أقوال المتخاطبين، فليس الأمر هنا متعلقاً بظاهرة التركيب، إنما يشترط في البلاغة أن يصاغ الكلام على هيئة يبلغ غايته القصوي وهي الإفادة. فصّل ابن خلدون كلامه عن أبواب البلاغة وتميّزها عن أبواب النحو ودورها في الكلام ، وفرّق بين التراكيب المختلفة لأن "الواقعات المحتاجة للدلالة هي أحوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل. وهو محتاج إلى الدلالة عليه لأنه من تمام الإفادة، إذا حَصَلَتْ للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة في كلامه، وإذا لم يشتمل على شيئ منها فليس من جنس كلام العرب، فإن كلامهم

اتضح من الكلام السابق والتفصيل الموجود في المقدمة عن علم البيان أن ابن خلدون يؤسس تعريفه النظري من حيث هو وظيفة إبلاغية تتركب مع الوظيفة التعبيرية.

قد ألقى ابن خلدون ضوءاً كاشفاً على مباحث علم المعاني والبيان والبديع مبيناً الفروق بينها كما بيّن جهود العلماء في هذا الميدان.[26]

أشار ابن خلدون إلى فائدة العلوم البلاغية قائلاً "واعلم ثمرة هذا الفن إنما هي فهم الإعجاز من القرآن؛ لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه يجمع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكلام، مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه ، وإنما يدرك بعض الشيء منه مَنْ كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته ....."[27].

د: علم الأدب

أما علم الأدب فقد تكلّم عبدالرحمن ابن خلدون عنه وجعل ثمرة هذا العلم "الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم فيجمعون ذلك من كلام العرب ماعساه تحصل به الملكة..."[28] وبهذا رسم مجال العلم ثم حده لوظيفته التي هي "ثمرته". وعرج ابن خلدون ضرورة حفظ كلام العرب للحصول على ملكة الإبداع بما يستقيم معه اقتفاء "أساليب العرب" و"مناحي بلاغتهم" ثم يذكر أمهات الكتب في الأدب وهي أدب الكاتب لابن قتيبة[29] وكتاب الكامل للمبرد[30] وكتاب البيان والتبيين للجاحظ[31] وكتاب النوادر لأبي القالي البغدادي[32]. وجعل الغناء في ضمن هذا العلم بقوله، و"كان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تاج للشعر، إذ الغناء إنما هو تلحينه".[33]

جعل ابن خلدون الأدب علماً تابعاً ، أو علماً مساعداً لغاية واضحة ، هي مؤازرة ودعم فعل معرفة أسرار العربية لتفسير النص الديني وامتلاك معناه؛ وهذا هو مفهوم ساد لدى كثير من العلماء الذين رأوا أن الآداب إنما تدخل ضمن عمليات وإجراءات استكناه العربية لتفسير القرآن والأحاديث النبوية من جهات مختلفة، واعتبروا أن الاستقصاء في كل أنواع العلوم المرتبطة باللغة والشواهد الشعرية أجل وأعظم المعارف الدينية؛ "لأن مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب، فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة"(34) واستطرد ابن خلدون من جانب آخر فيجد أن الأدب أنه هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف، يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط، أو لا يدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب" وبهذا جعل الأدب من المعارف والفنون التي لها صلة باللغة العربية وثقافتها، ويكاد دوره لا يتعدى دور "حفظ" أو نقل هذه المعارف بتقنيات مختلفة،ليكون الأديب بهذا الاعتبارمكلفاً بنقلها فحسب، وليس باستنباطها. ويكون دور الأديب مثل دور الفقيه والعالم والأصولي الذين كانت وظيفتهم نقل المعارف الضرورية حسب التصور الإسلامي للعلم .

بهذه الصورة تتكامل المعارف اللغوية في شكل هيكل رباعي.

المبحث الثاني

أفكار ابن خلدون عن اللغة والأدب

إذا تأملنا في أفكار ابن خلدون عن اللغة وآدابها فنجد أن منهجه اختباري يعتمد أساساً على البحث وطرق الاستقصاء لديه داخل شبكة من النسيج الأصولي (الابستيمولوجي). فطبيعي أن تأتي بحوث ابن خلدون في الظاهرة اللغوية والأدبية ضاربة جذورها في هذا المنهج الاختباري الذي يعتمد على التشريح

اللغة = التصويت ← التواصل ← العقد الجماعي.

وقد عرف ابن خلدون اللغة بقوله "واعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو في كل أمة حسب اصطلاحهم" . (36)

1: فلسفة اللغة عند ابن خلدون :

من مظاهر المنهج الاختباري عند ابن خلدون أنه جعل البعد الاجتماعي عنصراً أساسياً لوجود اللغة ؛ لأن ملكة تأليف الكلام على مقتضى أساليب المجموعة البشرية وقوالب لسانها هو الذي يُفضي إلى تركيب المقاصد والأغراض بين الفرد والجماعة .

والبعد الاجتماعي يمثل أُسًّا متواتراً في الفكر العربي إجمالاً بل لعله يجسم نقطة تقاطع المؤثرات المعرفية التي استقى منها ابن خلدون تصوراته المنهجية وحتى التعبيرية. يوضح ابن خلدون رأيه في هذا المضمار بنقل قول ابن مسكويه وأبي حيان التوحيدي "إن السبب الذي احتيج من أجله إلى الكلام هو أن الإنسان الواحد لما كان غير مكتف بنفسه في حياته، ولا بالغ حاجاته في تتمة بقائه مدته المعلومة وزمانه المقدر المقسوم، احتاج إلى استدعاء ضروراته في مادة بقائه من غيره، ووجب بشريطة العدل أن يعطي غيره عوض ما استدعاه منه بالمعاونة التي من أجلها قالت الحكماء "إن الإنسان مدني بالطبع"، وهذه المعاونات والضرورات المقسمة بين الناس لابد منها هي أشخاص وأعيان من أمور مختلفة... وهي كثيرة غير متناهية، فلم يكن بد من أن يفرغ إلى حركات بأصوات دالة على هذه المعاني بالاصطلاح

2- اللغة والتغير

أشار ابن خلدون في مقدمته أن اللغة خاضعة أمام التغير الزمني ، والسبب الأساسي في هذا المخالطة أو الغلبة ، فأما المخالطة -التي احتكاك بالمجاورة – فتمثل الثقل الاجتماعي في القضية اللغوية، وهي بذلك نموذج الضغط العمراني بالمعنى الخلدوني الصائر بعده إلى دوركايم(38). وأما الغلبة فهي المحرك الحضاري والسياسي في تطور اللغة إذ تمثل قانون التداخل اللغوي طبقاً لميزان القوى في الصراع السياسي بين المجموعات المتغيرة.

انطلاقاً من هذه الحقيقة فسدت ملكة اللغة عند العرب عندما خرجوا من الجزيرة العربية إلى حوزة الأمم الأخرى نتيجة المخالطة والعيش مع غيرهم من المجموعات اللغوية ولما خالطوهم "تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخلفات التي للمستعربين والسمع أبو الملكات اللسانية" (39).

وقد أكد علم اللسان التربوي الحديث على ضرورة اهتمام بملكة السمع باعتبارها الحاسة الأولى المساهمة في عملية التعليم ، وهي تأتي في المرتبة الأولى؛ ذلك إن الإنسان يسمع قبل أن يتكلم . وهذه الملكة تحصل في رأي ابن خلدون "... بممارسة كلام العرب وتركه على السمع والتفطن لخواص تراكيبه وليست تحصل بمعرفة قوانين العلمية في ذلك ..."(40) والظاهر لنا جلياً أن الرجل قد أعطى السمع الأولية في امتلاك ناصية العلم معتبراً إياه أباً لجميع الملكات؛ ذلك: إن الطبيعة وهبت الإنسان لساناً واحداً ، ولكنها وهبته أذنين ..... والحكمة في ذلك هي أن يسمع ضعف ما يتكلم.

تكلم ابن خلدون بالتفصيل عن تغير الدلالات وتوليدها حسب مقتضى الحال؛ لأن لكل علم وفن له مصطلحات خاصة. يتغير مفهوم الكلمة والمصطلح من موضع إلى موضع ومن شخص إلى

صوّر ابن خلدون كيفية نشوء ثبت العلوم ابتداءً من رصيد اللغة القائم فعلاً ، وذلك بواسطة التحويل التواطئي الذي يرتكز على اشتقاق اقتران دلالي حادث من اقتران سالف. ومن أوضح الأمثلة عنده على هذه الظاهرة اللصيقة باللغة ما نستقرئه من ثبت اصطلاحي في علم الحديث يورده صاحب المقدمة استدلالاً على اكتساح العلم أجهزة اللغة بالتحويل والتوليد، ومما صاغه علماء الحديث بالوضع الاصطلاحي الطارئ طبقاً للمراتب المنتظمة في فنهم: "الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والمعضول والشاذ والغريب والمشكل والتصحيف والمفترق والمختلف"(42) ولكن أطرف ما في استقراء ابن خلدون انتهاؤه إلى أن معرفة هذه الاصطلاحات هي ذاتها علم الحديث فيكون قد طابق بالتمام بين المعرفة وثبتها الاصطلاحي المحول عن وضعه الدلالي المشترك إلى الوضع المعرفي الحادث .

3- الملكة اللسانية عناصرها وأنواعها

بسط ابن خلدون القول عن الملكة اللسانية والإبداعية وهي صفة راسخة في النفس تمكن الإنسان بالأعمال العائدة إليها، ووضح أن الملكة اللغوية تختلف باختلاف الأشخاص، والملكة تتكون من عنصرين هامين وهما: عنصر العلم أو المعرفة

حاول ابن خلدون أن يربط الملكة من حيث هي استعداد ما قبلي في الإنسان بمشكل الاكتساب باعتباره ترويضاً لطاقة الإنسان على الحركة والابتكار، وقسّم الصنائع إلى قسمين: 1- البيسط 2- المركب ، فالبسيط يختص بالضروريات والمركب يكون للكماليات .(45)

ووضّح الفرق بين الملكة والصناعة كفكرتين اختباريتين في علاقة الإنسان بمعضلة الاكتساب في الوجود عامة، فيتبين من استقراءات ابن خلدون خاصة. إن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري بمعنى أن الصناعة والملكة تلتقيان في ممارسة المحسوص من الدخول فتكون "الملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته وعلى نسبة الأصل تكون الملكة .(46)

فالتكرار مبدأ ضروري لتكوين الملكة؛ لكونه عاملاً أساسياً لتحقيق الملكة، ذلك لأن الملكة لا تحصل إلا بممارسة كلام العرب وتكراره على السمع والتفطن لخواص تركيبه. ومن هنا يتضح أن

بلور ابن خلدون مبدأ اجتماع عنصري الملكة والصناعة في مفهوم اللغة وذلك بإدخال محلها جميعاً وهو اللسان ، فيتخذ منه محوراً مركزياً ينسب إليه الاستعداد بالملكة والرياضة بالصنعة فيصبح الكلام مهارة مكتسبة بالاستعداد والمران في نفس الوقت ، فتتنوع عبارة ابن خلدون في وصف اللغة : فهي "ملكة اللسان" مرة هي: "صناعة ذات ملكة" طوراً ، وهي "ملكة اللسان بمنـزلة الصناعة" تارة أخرى.(47)

قد ميّز ابن خلدون بين اللغة كملكة واللغة كصناعة ، فالنوع الأخير هو اللغة كنظام وعلم مجرد وقوانين ويمثل هذا النوع جانب البحث، أما النوع الثاني فهو اللغة كإنجاز أو تحقيق فعلي في صورة كلام أو كتابة ويمثل هذا النوع جانب الاستعمال.

بيّن ابن خلدون أن الإنسان لا يستطيع أن يمتلك أكثر من ملكة لسانية واحدة بصورة كاملة، بحيث تغلب هذه الملكة على غيرها من الملكات التي يحصل عليها، وإذا ما نازعت ملكة ما، الملكة الرئيسية عند الإنسان، فإنها تضعف وتتأثر الملكة الرئيسة، ووضح قائلاً: "وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته، تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ وعلى مقدار جودة المحفوظ المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده: ثم إجادة الملكة من بعدهما: فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام، ترتقي الملكة الحاصلة، لأن الطبع إنما ينسج على منوالها، وتنمو قوى الملكة بتغذيتها، وذلك أن النفس وإن كانت في جبلتها واحدة بالنوع، فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الإدراكات. (48)

إن الملكة تتشكل عند ابن خلدون من كثرة المحفوظ في لون واحد من المعرفة، وبالتالي ، فقد ألغى عنصر الموهبة والفطرة عند المبدع(49) يقول في هذا الصدد "ومن كان خالياً من

أكد ابن خلدون على أن الملكة لا تتحصل بالموهبة وإنما بالتعليم فقط؛ لأن الملكة إنما تحصل بالتعليم قد عرض ابن خلدون موضوع بواعث الشعر المرتبطة بالموهبة والغريزة عند ابن رشيق (ت: 463هـ) من باب الذكر فقط ، وذلك بقوله : قالوا ولكنه خالفهم في هذا. (51)

لعل ابن خلدون تأثر حول إلغاء الموهبة بابن طباطبا (ت: 322هـ) في كتابه عيار الشعر من قبل حيث رأى ابن طباطبا أن الإبداع لايتشكل من الموهبة أو اللاوعي، وإنما من حالة الوعي المطلق القائم على التعليم ومن هنا يرى ابن طباطبا أن بناء القصيدة الشعرية يقوم على الوعي لا على الموهبة والإبداع: "فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثراً ، وأعدله ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه ، والقوافي التي توافقه والوزن الذي يسلس له القول عليه". (52)

4- طُرق اكتساب اللغة:

يزاوج ابن خلدون في طرق اكتساب اللغة بين التنظير والتطبيق ويقرر مبدئياً في هذا الصدد أن "السمع أبو الملكات اللسانية". (53) والسر في ذلك عنده أن النفس تجنح لما يلقى إليها ، لذلك كان لسان الإنسان صورة للسان من ينشأ بينهم لأنه يسمع كلامهم وأساليب مخاطبتهم وكيفيات تعبيرهم عن مقاصدهم ابتداء بالمفردات في معانيها وانتهاء بالتراكيب في انتظام بعضها ببعض ولايزال يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة راسخة.

ولذا فالتعليم في الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده "لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات وعلى حسب أساس وأساليبه يكون حال من ينبني عليه" (54)

وهكذا يتركز على يد ابن خلدون مبدأ ارتياض بالمعاودة فيكون اكتساب الحديث اللغوي محصول معادلة الممارسة والتكرار: لأن "الملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال؛ لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة تتكرر حالاً، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار،فيكون ملكة أي صفة راسخة". (55)

اتضح من هذا أن لحظة الاكتساب تتحدد إذن بحصول القدرة على التصرف في التعبير ما وعاه الإنسان من تراتيب الألفاظ وأساليب النظم . (56)

ويمكن أن يطلق عليه لحظة التحول من الاختزان إلى الإنجاز بالتصرف العفوي والابتداء التلقائي، وهو ما يسميه ابن خلدون "فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة". (57)

تكتسب اللغة إما من خلال الترعرع في البيئة أو بواسطة الحفظ والمران. (58)

ميّز ابن خلدون بين نوعين من الاكتساب اللغوي: (الاكتساب من خلال الترعرع في البيئة وسماع لغتها واكتسابها بواسطة الحفظ والمران)؛ إذ في الأول يتلقى أذن الطفل أو الأعجمي التراكيب اللغوية والكيفيات الكلامية فيقوم بالتعبير عن مقاصده بواسطة هذه الكيفيات، ويستمع إليها أخرى فيحفظها ويعبر بها في مقامات تكوين التراكيب اللغوية. أما الاكتساب بواسطة الحفظ والمران. فلذلك بإيجاد الأجواء المناسبة لعملية تعلم اللغة والطريقة المناسبة هي إحاطة المتعلم بالنتاج العربي الفصيح، والتعامل معه حفظاً وممارسة، وإن فقد الجو الفطري المتحدث باللغة السليمة فثمة طريق آخر يقوم مقام السماع وهو حفظ النصوص الجيدة شعراً ونثراً وعلى رأسها القرآن الكريم. فلابد من وجود محيط لغوي كما لابد من كثرة الحفظ ومداومة الاستعمال. (59)

وإذا أردنا أن نلخص أسباب اكتساب اللغة عند ابن خلدون فيمكن أن نرتب هكذا :

السماع ← الاختزان ← الممارسة والتكرار ← الإنجاز

5- اللغة بين الاستعمال والاستيعاب :

من الظواهر التي نجدها عند ابن خلدون هي أن اللغة واسعة جداً ، ولا يمكن للإنسان أن يحصرها ؛ لأن الإنسان رغم قدرته على استعمالها هو عاجز عن استيعابها(60) وهذا ما سجله ابن خلدون بعين الاستغراب والاستطراف.

ولاشك أن الروح الاختباري قد كان مركز النظر عند ابن خلدون، وهذه الروح واضحة كل الوضوح في آرائه الفلسفية والعمرانية والرياضية، وآراؤه عن اللغة تتحدى الفكر المعاصر بصرامة مقولاتها وعنف موضوعيتها.

6- علاقة اللغة بالحضارة والعمران :

لعل أبرز ما توصل إليه ابن خلدون في هذا المجال هو الربط بين نظريته الاجتماعية وما تعانيه من علوم الحضارة والأجناس البشرية وبين الأدب والبلاغة، فقد توصل ابن خلدون إلى التأكيد بأن سبب تفوق أبناء المشرق العربي على إخوتهم أبناء المغرب العربي في مجال العلوم اللسانية هو الحضارة والعمران ، وصرّح قائلاً: "وهذا ما جعل أهل المغرب يتوجهون إلى فن البديع الذي يعنى بالزخرفة اللفظية، في حين أن أنواع البلاغة الأخرى مثل علمي المعاني والبيان يحتاجان إلى دقّة أكثر من غيرهما من صنوف البلاغة وذلك لارتباطهما المباشر بتشكيل المعاني والصور الشعرية، وهذا يجعل الباحث يغوص في غموض المعاني، مما جعل الأمر صعباً على أهل المغرب العربي، وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة، وسببه -والله أعلم- أنه كمالي في العلوم اللسانية، والصنائع الكمالية توجد في وفور العمران والمشرق أوفر عمراناً من المغرب... وإنما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة، وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية، وفرعوا له ألقاباً وعدّوا أبواباً ونوّعوا أنواعاً وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب، وإنما جعلهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ، وأن علم البديع سهل المآخذ وصعبت

يتضح من هذه العبارة أن ابن خلدون نظر إلى اللغة وعلومها بنظرة عمرانية، وأربطها بالعمران في الرقي والانحطاط والصعود والهبوط، فكلما ارتقى العمران ارتقت اللغة وعلومها وكلما تقهقر وتراجع العمران تقهقرت اللغة ومتعلقاتها. وهذا ما حدث مع اللغة العربية وعلومها عبر التاريخ. والتاريخ خير شاهد على هذا.

7- الشعر وصناعته عند ابن خلدون:

قد تكلم ابن خلدون في المقدمة عن الشعر وصناعته ، وقدّم تعريفات عديدة للشعر منها قوله "الكلام الموزون المقفى ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد هو القافية"(62) وهذا تعريف في جوهره عروضي ينصب على جانب الوزن في ماهية الشعر، وأعاد صياغة التعريف قائلاً "كلام مفصل قطعاً قطعاً متساوية في الوزن متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتاً، ويسمى الحرف الأخير الذي تتفق فيه روياً وقافية".(63)

وهذا التعريف تأكيد لمبدأ التعلق بالجانب الشكلي أو الإيقاعي من بناء الشعر وطبيعته.

أقرّ ابن خلدون أن الشعر صعب المآخذ على الذي يريد اكتساب ملكة بالصناعة باعتبار استقرار كل بيت منه وكونه كلاماً تاماً في مقصوده وقوياً على الانفراد دون ما سواه، وهذا يحتاج إلى جهود مضنية من قِبَل الشاعر؛ لأن الشعر هو عبارة عن الأسلوب الذي يعنى المنوال الذي تنسج فيه التراكيب أو القوالب الذي تفرغ فيه، وليس للأسلوب علاقة بإفادة أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب ولا إفادة كمال المعنى الذي هو وظيفة البيان والبلاغة وبالوزن الذي هو وظيفة العروض".(64) وهنا يلغي ابن خلدون دور فاعلية هذه العلوم الثلاثة (النحو،البلاغة

وتغدو قوالب جاهزة للاستعمال، ولن تستكمل هذه الهيئة صورتها إلا عن طريق واحد هو "حفظ أشعار العرب وكلامهم فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر وملكة الكتابة بحفظ الأسجاع". (66)

وقرّر رأيه بأن تعريف العروضيين للشعر تعريف قاصر ووضع حداً جديداً بقوله "الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزءٍ منها بغرضه ومقصده عما قبله وبعده والجاري على أساليب العرب المخصوصة به". (67)

وقد اشترط ابن خلدون للشعر أن يشتمل على الاستعارات والأوصاف كما اشترط أن تكون الاستعارات سهلة وواضحة وقد عاب ابن خلدون شعر المتنبي وأبي العلاء لخروجها عن أساليب العرب؛ لأن شعر المتنبي غامض وشعر أبي العلاء يغلب عليه النـزعة الفلسفية كما يزعم.

ومن هنا نجد أن ابن خلدون أضاف إضافة جديدة في تعريف الشعر الذي تجاوز فيه حدود الوزن الذي يفصل بين الشعر والنثر لأنه اشترط للشعر أن يكون مبنياً على الاستعارات والأوصاف كما أنه صرّح بانفصال أبيات القصيدة.

هنا يلاحظ أنه جعل حفظ أشعار العرب القدماء من الشروط الأساسية؛ حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها ، ويتخير المحفوظ من الحر النقى الكثير الأساليب... ومن كان خالياً من المحفوظ فنظمه قاصر رديٌ ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلا كثرة المحفوظ ، فمن قلّ حفظه أو عدم لم يكن له شعر... (68)

ومن الملاحظ أن ابن خلدون جعل القصيدة يقوم على أقسام أو أعراض منفصلة لا ترابط بينها ، ومن هنا أنه لا يؤمن بالوحدة العضوية للقصيدة العربية ؛ لأنه قال ؛ "إذ هو كلام مفصل قطعا قطعا متساوية في الوزن متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة وتسمى من هذه القطعات عندهم بيتاً ... وينفرد كل بيت منه بإفادته في تراكيبه حتى كأنه كلام وحده ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ..."(69)

يظهر من كلام ابن خلدون عن الشعر أنه متأثر بابن طباطبا(ت: 322هـ) بخصوص بناء القصيدة لأنه رأى القصيدة مكونة من أبيات منفصلة، ومن قطع متساوية منفردة فيقول:"فيحرص الشاعر على إعطاء ذلك البيت ما يستقل في إفادته ، ثم يستأنف في البيت الآخر كلاماً آخر كذلك".(70)

هذا الكلام يشبه تماماً مع كلام ابن طباطبا حول بناء القصيدة الذي مضى ذكره قبل قليل.(71)

قد فرّق ابن خلدون بين النظم والشعر فرقاً واضحاً وجعل الوزن فرقاً بالدرجة الأولى ثم القافية والأغراض إلى آخره. كما أنه جعل أسلوب القرآن خارجاً عن النثر والشعر ؛ لأن القرآن وإن كان من المنثور إلا أنه خارج عن الوصفين وليس يسمى مرسلاً مطلقاً ولا مسجعاً بل هو مفصل آيات تنتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها.(72)

لم يختلف ابن خلدون عن النقاد العرب السابقين في تقسيمه للكلام العربي إلى نظم ونثر ، وهو ما جاء عند قدامة بن جعفر (ت:337هـ)(73) وابن رشيق القيرواني (ت: 456هـ) الذي جاء ذكره تحديداً ، حيث قسم الكلام إلى قسمين : منظوم ومنثور.(74)

يرى ابن خلدون أن الشاعر أو الأديب أو العالم يستطيع أن يحصل ملكة في فن أو علم واحد فقط ، فلا يستطيع الشاعر أن يبدع في فني المنظوم والمنثور معاً؛ لأن الملكة إذا سبقت إلى محله ملكة أخرى قصرت بالمحل عن تمام الملكة اللاحقة لأن

وأكد مقولته بقوله: "وقد تقدم لك أن الصنائع وملكاتها لا تزدحم: وأن من سبقت له جادة في صناعة ، فقلّ أن يجيد أخرى أو يستولي فيها على الغاية". (76)

لعل ابن خلدون تأثر بما جاء عند ابن قتيبة (ت: 276هـ) من قبل في كتاب الشعر والشعراء حول قدرة الإنسان على الإبداع والتمييز في فن واحد دون غيره، حيث رفض ابن قتيبة أشعار العلماء ، لأنهم تميزوا في علوم أخرى غير الشعر، فيقول:"وهذا الشعر بين التكلف ردئ الصنعة وكذلك أشعار العلماء ليس فيها شيئ جاء عن سماح وسهولة كشعر الأصمعي وشعر ابن المقفع وشعر الخليل". (77)

8- الأدب ودوره الحضاري عند ابن خلدون:

لا يخفى على المتأمل في كلام ابن خلدون عن الأدب وقضاياه أنه يجعل الأدب وما يتصل به جزءاً مهماً لاستكمال ضرورات المعاش ويؤدي دوره إذا سُدت الحاجات المادية وبهذا يبدأ دور الأدب بعد استيفاء سبل الكسب والمعاش فتتولد عندئذ العلوم والأدب، ويكون بناؤها على شكل القاعدة هي البنية المعاشية والقمة هي البنية المعرفية. وجعل الأدب وسيطاً لصيانة النماذج الثقافية وحفظها،كما أنه ينظر إلى الأدب باعتباره "بضاعة" سوقها السلطة والسلطان، فقد أشار مثلاً إلى أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بها على أمره، والحاجة أول الأمر هي للسيف، ولكن مع التطور تقوى الحاجة إلى القلم وإلى تصريف دوره مما يعنى أن الدولة مع مظاهر استقرارها وهيمنتها تعتمد إلى استبدال العنف المادي الذي كان يمارس بالسيف إلى عنف رمزي تنهض به المؤسسة الثقافية التي تعول على خدمات أطرافها: الفقيه والمتكلم والخطيب والكاتب واللغوي والنحوي والشاعر...الذين يقومون بدور أساسي في مجرى ترسيخ

من المعلوم أن المقدمة أصلاً ليس لها أية علاقة مع حقل اللغة والأدب، إلا أنها "منتوج أدبي" والأدب واللغة إنما جاء الحديث عنهما عرضاً أو استطراداً – وهذا ما نراه في ترتيب محتويات كتابه؛ لأن الكتاب (المقدمة) يتألف على مقدمة وثلاثة كتب، تختص المقدمة بذكر فضائل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ورصد مغالط المؤرخين ولإلمام بها، بينما الكتاب الأول يختص بالعمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض والعلل والأسباب، والكتاب الثاني في ذكر أخبار العرب وأجيالهم والكتاب الثالث في أخبار البربر ومواليهم... والحديث عن اللغة والأدب يدخل ضمن محتويات الكتاب الثاني الخاص بالعمران وثوابته ومتغيراته ، ولذلك فإن المقدمة هي كتاب يهتم بالتاريخ والعمران، وهي بذلك ليست مدونة لغوية أو نقدية أدبية ، وصاحبها ليس لغوياً ناقداً أدبياً ، واشتغاله لا يهم حقل الأدب إلا من زاوية ضيقة، على الرغم من تجربته الخاصة في مجال الكتابة شعراً ونثراً.

ولذا فإن اللغة والأدب لا يحضران في المقدمة إلا باعتبارهما عارضين من عوارض العمران أو الاجتماع الإنساني باعتبارهما أداتين أو علمين يدخلان تحت طائلة أصناف العلوم والصناعات التي عمد ابن خلدون إلى التاريخ وأيام العرب وأخبارهم وأنسابهم. ولكن مع هذا هو من كبار أئمة الأدب وأعلام البيان العربي ومن أبرز المجددين في أسلوب الكتابة العربية ، وكانت علوم اللغة العربية والأدب العربي من أبرز ما عني ابن خلدون بدراسته واستأثر بقسط وافر من وقته ونشاطه في جميع مراحل حياته ، وما كتبه في المقدمة عن اللغة العربية وأدابها إن دل على شيء فهو يدل على قوة تمكنه وسعة اطلاعه ويسمو به إلى مستوى الأئمة وكبار المتخصصين في هذه المواد. (79)

من الملاحظ أن كثيراً من الأحكام النقدية التي اعتمدها ابن خلدون تعود في أصلها لسلسلة الآراء التي ساهم بها علماء المغرب والأندلس كما رأينا في قضية الموهبة والتعليم وقضية

فهو أولاً مورخ للعلوم وثانياً ناقد لأصول العلوم ومنهاجها وثمارها وثالثاً منقب عن خصائص المعرفة الإنسانية وكليات الإدراك البشري عبر جهازه اللغوي.

الخلاصة

بعد القراءة المتأملة وتسليط الأضواء على نظرة ابن خلدون إلى علوم اللغة العربية وآدابها يستحسن أن يقدم لب البحث بإيجاز شديد.

لا شك أن عبدالرحمن ابن خلدون عبقرية عربية متميزة، وعالم موسوعي ذو ثقافة واسعة، وهو المؤسس الأول لعلم العمران (الاجتماع) وإمام ومجدد في كثير من الدراسات التربوية والنفسية. تكلّم ابن خلدون في كتابه "المقدمة" عن قضايا لغوية وأدبية كثيرة، وذكر أنواع العلوم العربية (النحو، علم اللغة، علم البيان، وعلم الأدب)، وأورد آراء العلماء السابقين وأدلى دلوه بإضافات جديدة.

حاول البحث إلقاء الأضواء الكاشفة على آراء ابن خلدون عن اللغة وبيان تعريف اللغة عنده وفلسفتها وتوضيح أسباب تغير دلالات اللغة بتغير الزمن نتيجة المخالطة والغلبة. ووقف البحث أمام الملكة اللسانية عند ابن خلدون طويلاً؛ لأنها قضية أساسية عنده، ولذا نجد أن صاحب المقدمة يكرر هذه القضية كثيراً ويذكر أنواعها وأسباب حصولها كما يذكر وأسباب فسادها كذلك كما نجده يبيّن طرق اكتساب اللغة ويوزّعها إلى نوعين رئيسين: (1)

لاحظ ابن خلدون العلاقة الوطيدة بين اللغة والحضارة بحيث أن اللغة ترتقي بارتقاء الحضارة وتقهقر بتراجع الحضارة والعمران .

فصّل ابن خلدون القول عن الشعر وصناعته وقدّم تعريفات عديدة للشعر من حيث الوزن والشكل والأسلوب كما ذكر شروط الشعر وأضاف إضافات جديدة في تعريف الشعر وقدّم رأيه عن بناء القصيدة يجعل كل بيت مستقل عن الأبيات الأخرى، وبهذا هو لا يؤمن بالوحدة الموضوعية للقصيدة. جعل صاحب المقدمة الأدب عنصراً تكميلياً للحضارة حيث يؤدي دوره إذا سُدت الحاجات المادية كما جعل الأدب وسيطاً لصيانة النماذج الثقافية وحفظها وخير بضاعة للسلطة والسلطان لأنه يؤدي دوراً بارزاً في ترسيخ سيادة وهيمنة نسق ثقافي معين.

لاحظ البحث أن المقدمة ليست كتاب أدب أو مدونة نقدية وصاحبها ليس ناقداً، ولذا نري أن كثيراً من الآراء اللغوية والأدبية والنقدية عند ابن خلدون هي مأخوذة من علماء المغرب والأندلس والقضايا الأدبية غير منظمة أحياناً وناقصة أحياناً أخرى، ولكن هذه الهنات الصغيرة لا تقل شأن ابن خلدون ولاكتابه المقدمة لأنه من كبار أئمة الأدب ومن أبرز المجددين في الكتابة العربية، وكانت العلوم اللغوية والقضايا الأدبية موضع اهتمام عنده، وما كتبه في المقدمة عن اللغة وآدابها خير دليل على قوة تمكنه وسعة اطلاعه وكونه من كبار الأئمة والمتخصصين في مجال الدراسات اللغوية والأدبية.

الهوامش

(1) المسدّي، عبد السلام ، التفكير اللساني في الحضارة العربية ، (الدار التونسية للكتاب ط:2، تونس 1986م) ص208 – 237.

(2) انظر التفصيل "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ص:5 وما بعدها ، و "عبد الرحمن بن خلدون" ، د. علي عبد الواحد وافي (الهيئة المصرية العامة للكتاب: 1975م) ص:9 .

(3) المقدمة (دار الجيل بيروت) ج:1 ، ص: 400 .

(4) ينظر محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية (وكالة المطبوعات، الكويت 1973م) ص: 59 - 72.

(5) المقدمة : ج : 2 ، ص: 248 .

(6) هو عَلَم من أعلام الفلسفة العربية الإسلامية ، لُقّب بالمعلم الثاني بعد أرسطو ، يعد كتابه إحصاء العلوم من أول المحاولات التأليفية في تصنيف المعارف وتأسيس فلسفة العلوم . ينظر الذهبي، الإمام شمس الدين ، أبو عبد الله ، سير أعلام النبلاء (مؤسسة الرسالة) ج:15 ، ص416 , وابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت:618هـ) وفيات الأعيان تحقيق: إحسان عباس ، الدكتور (دار صابر بيروت ، لبنان) ج: 5، ص153 .

(7) هو عبد الرحمن بن أبي الوفاء محمد بن عبد الله ، عاش بين سنتي (512 -577هـ) من اللغويين المتأخرين لذلك اعتنى بالبحث في المسائل الخلافية التي سادت النحو العربي فألف أشهر ما عرف في هذا المجال وهو كتابه "الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين" . ينظر القفطي: علي بن يوسف ، إنباه الرواة علي أنباه النحاة: تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم (مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط:1، 1986م) ج:2 ، ص169.

(8) أقبل على تحصيل المعارف اللغوية منذ نعومة أظفاره فعمل على تبويبها وتصنيفها فوضع في ذلك كتابه مفتاح العلوم، الذي صار حجة في علم البلاغة لدى المتأخرين . ينظر الحموي ياقوت ، شهاب الدين بن يعقوب: معجم الأدباء ، (دار المأمون ، القاهرة) ج: 2 ص58 .

(9) ينظر محمود فهمي حجازي ، علم اللغة العربية ، ص: 59 - 72.

(10) من علماء الأندلس توفي سنة 745هـ لقب بالنحوي تمييزاً عن أبي حيان التوحيدي، ألف تفسيرًا كبيراً يعرف بالبحر المحيط، وألف في النحو الارتشاف. ينظر إسماعيل باشا البغدادي ، هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون (دار الكتب العلمية ، بيروت) ج: 2 ، ص: 153 .

(11) المقدمة ج: 2 ، ص : 248.

(12) المصدر نفسه ج: 2، ص : 254

(13) المصدر نفسه ج: 2 ، ص : 248.

(14) المصدر نفسه ج: 2 ،ص : 248.

(15) المصدر نفسه ج: 2 ، ص : 249.

(16) المصدر نفسه ج: 2 ، ص : 249

(17) المصدر نفسه ج: 2 ،ص : 251

(18) هو عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي من نحاة القرن الرابع ، توفي 351هـ ، كان عالماً موسوعيا ، ألف "الإبدال" و "الأضداد في كلام العرب" ومراتب النحويين. ينظر وُليد بن أحمد الحسين الزبيدي وزملاؤه ، الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والقراءة والنحو واللغة (سلسة إصدارات الحكمة ، ط:1 ، 2003م) ج: 2 ص:1464.

(19) من أشهر علماء اللغة العربية توفي سنة (395هـ) كتب "تخير الألفاظ" و"الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها" و"معجم مقاييس اللغة" . ينظر د. بدوي طبانة، البيان العربي، دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى (مكتبة الأنجلو المصرية ط:3، 1962م) ص123.

(20) توفي 428هـ من أشهر العلماء المهتمين بتدوين اللغة من مؤلفاته "الإيجاز والإعجاز" و"فقه اللغة" و"سر العربية" و"يتيمة الدهر". الأعلام للذهبي، ج:17، ص: 437 .

(21) من النحاة المتأخرين توفي سنة 688هـ ، اعتنى بشرح المتون مثل الكافية والشافية في علم النحو والصرف، الزركلي ، خير الدين بن محمود (ت:1396هـ) الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء. (دار العلم للملايين ، بيروت) ج: 6 ، ص: 86 .

(22) انظر المقدمة ، ج:2 ، ص: 251 – 252 .

(23) ينظر مزيد من التفصيل في المقدمة ص : 251 – 252 .

(24) المقدمة ج: 2 ، ص: 248 .

(25) المقدمة ج:2 ، ص: 254
(26) ينظر المقدمة ج:2 ، ص: 254 – 256 .
(27) المقدمة، ج:2 ص: 256
(28) المقدمة ج:2 ، ص : 256 – 257 .
(29) هو أبو محمد بن قتيبة ، ولد في الكوفة وعاش في بغداد . تولى القضاء في دينور ولذلك عرف بالدينوري ، اهتم بإعجاز القرآن ، فألف تأويل مشكل القرآن واهتم بالأدب فألف "الشعر والشعراء" واهتم كذلك بالتاريخ فألف عيون الأخبار ، الأعلام ج:13 ، ص: 296 .
(30) هو محمد بن يزيد المبرد (ت: 286هـ) صاحب كتاب الكامل في الأدب: ينظر أبو عبيد البكري (ت: 487هـ) سمط اللآلي في شرح أمالي القالي تحقيق: عبدالعزيز الميمني (لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1936م) ص:34.
(31) هو أبو عثمان عمرو بن الجاحظ ، اشتهر بغزارة العلم ، وقوة الحجة وبلاغة القول، وله كتب عديدة في الأدب مثل كتاب الحيوان وكتاب المحاسن وكتاب البخلاء وغيرها ، ينظر ابن نديم ، أبو الفرج محمد بن يعقوب إسحاق (ت: 428هـ) الفهرست (دار المسيرة، بيروت، ط:2)، ص: 28 – 212 ، وابن خلكان: وفيات الأعيان ، تحقيق : إحسان عباس ، الدكتور ، ج:2 ، ص: 480 .
(32) هو أبو علي إسماعيل ابن قاسم (المتوفى 356هـ) عاش بين أواخر القرن الثالث ومنـتصف القرن الرابع ، اهتم بعلوم اللغة والأدب والحديث، من أشهر مؤلفاته "الأمالي" . له أيضاً "البارع في غريب الحديث"، ينظر الأعلام ج:1، ص321.
(33) المقدمة ج:2 ، ص: 257 .
(34) المقدمة ج:2 ، ص : 248 .
(35) الدكتور عبد السلام المسدي : الأسس الاختبارية في نظرية المعرفة عند ابن خلدون، (الشركة التونسية للتوزيع) ص: 147-200 .
(36) المقدمة ج: 2 ، ص : 249 .
(37) ينظر ابن مسكويه وأبو حيان التوحيدي ، الهوامل والشوامل ، نشره أحمد أمين وأحمد صقر ، (القاهرة 1951م) ، ص6 – 7 .

(38) آميل دور كايم فرنسي عاش بين (1858 – 1917م) اختص بالبحث في علم الاجتماعي ، ومن أشهر كتبه "قواعد المنهج الاجتماعي" .
(39) ينظر المقدمة: ج2، ص45 و 258 .
(40) المقدمة ج2 ، ص266 .
(41) المقدمة (طبعة إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط:4) ، ص553 .
(42) كل هذه مصطلحات لأصول الحديث فمن أراد التفصيل عن هذه المصطلحات فليراجع كتب أصول الحديث .
(43) المقدمة ج2 ، ص266 .
(44) المصدر نفسه ج2 ، ص266 .
(45) ينظر : د. ميشال زكريا ، الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون ، ص24 .
(46) المقدمة ج2 ، ص258 .
(47) المقدمة ج2 ، ص258 .
(48) المقدمة ج:2 ، ص: 258
(49) عباس ، إحسان : تاريخ النقد الأدبي عند العرب (دار الثقافة ، بيروت 1992م) ص62 .
(50) المقدمة ج:2 ، ص286 ، وأحمد بدوي : أسس النقد الأدبي عند العرب ، (دار نهضة مصر ، القاهرة) ص87.
(51) ينظر التفصيل في كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (دار الجيل، بيروت 1972م) ج:1، ص: 208، وفي الأصل هو مأخوذ من ابن قتيبة الذي قال: وللشاعر أوقات يسرع فيها أتيه ويسمع فيها أبيه : منها أول الليل قبل تغشي الكرى، ومنها صدر النهار قبل الغداء، ومنها يوم شرب الدواء ، ومنها الخلوة في الحبس، والمسير، ينظر ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق دي جوبيه ، (ليدن 1904م ص: 19) .
(52) ابن طباطبا، محمد بن طباطبا العلوي: عيار الشعر، تحقيق: الحاجري ومحمد زغلول سلام (المكتبة التجارية، القاهرة، 1957م) ص: 5 .
(53) المقدمة (دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط:4) ص : 546 .

(54) المصدر نفسه ج:2 ص: 258 .
(55) حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، (المؤسسة الوطنية للكتاب، ط:3، الجزائر) ص: 225.
(56) المقدمة ج:2، ص : 359 .
(57) المقدمة ج:2، ص : 431 .
(58) ينظر محمد فاروق النبهان ، الفكر الخلدوني من خلال المقدمة (مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر 1998م) ص280
(59) المقدمة ج:2، ص:232 وينظر د.حلمي خليل، اللغة والطفل، دراسة في ضوء علم اللغة النفسي ص:258.
(60) المقدمة ج:2، ص : 232 .
(61) المقدمة ج:2 ، ص: 256 ، وينظر د.بدوي طبانه : البيان العربي ، ص: 134 – 135 .
(62) المصدر نفسه ج:2 ، ص: 270 .
(63) المصدر نفسه ج:2 ، ص: 272 .
(64) المقدمة ج:2 ، ص: 273 .
(65) المصدر نفسه ج:2 ، ص: 276 .
(66) المصدر نفسه ج:2 ، ص: 276 .
(67) المصدر نفسه ج:2، ص: 276 – 277 .
(68) المقدمة ج:2، ص: 277 .
(69) المصدر نفسه ج:2، ص: 277.
(70) المقدمة ج:2 ، ص: 273.
(71) المقدمة ص : ينظر الصفحة 18، من هذا البحث.
(72) المقدمة ج:2 ، ص: 270 .
(73) ينظر قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ، 1978م، ص64 .
(74) ابن رشيق القيرواني ، العمدة ، ج:1 ، ص 29 .
(75) المقدمة ج: 2 ، ص: 272 .
(76) المقدمة ج: 2 ، ص:272 .
(77) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص : 10-11 .
(78) ينظر : إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري (دار الثقافة بيروت ، ط:3، 1980م) ، ص 505 .

(79) د. علي عبد الواحد وافي ، عبد الرحمن بن خلدون ، حياته وآثاره ومظاهر عبقريته (الهيئة المصرية العامة للكتاب : 1975م)

قائمة المصادر والمراجع

.1	إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري (دار الثقافة بيروت ، ط:3 ، 1981م)
.2	إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون (دار الكتب العلمية ، بيروت).
.3	بدوي طبانة، د/ البيان العربي ، دراسة في تطوير الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى (مكتبة الأنجاد المصرية ، ط: 3، 1962م) .
.4	د. حلمي خليل : اللغة والطفل ، دراسة في ضوء علم اللغة النفسي .
.5	الحموي، ياقوت،شهاب الدين بن يعقوب، معجم الأدباء (دار المأمون، القاهرة).
.6	حنفي بن عيسى ، محاضرات في علم النفس اللغوي ، (المؤسسة الوطنية لكتاب ، ط:3، الجزائر).
.7	ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق : أبو عبد الله السعيد المندوة (مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت – لبنان) .
.8	التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً.
.9	ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت: 618هـ): وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، الدكتور (دارصادر بيروت – لبنان)
.10	الذهبي، الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد: سير أعلام النبلاء، (مؤسسة الرسالة).
.11	ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد (دار الجيل ، بيروت 1972م) .
.12	الزركلي، خير الدين، الأعلام، قاموس لأشهر الرجال والنساء (دارالعلم للملايين، بيروت).
.13	ابن طباطبا ، محمد بن طباطبا العلوي : عيار الشعر ، تحقيق : الحاجري ومحمد زغلول سلام (المكتبة التجارية ، القاهرة ، 1957م) .

.14	أبو عبيد البكري (ت: 487هـ) سمط اللآلي في شرح أمالي القالي ، تحقيق : عبد العزيز الميمني (لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة : 1936م)
.15	الفكري ، محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون حياته وتراثه (دار الكتب المصرية ، القاهرة 1962م).
.16	ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، تحقيق دي جوبيه (ليدن ، 1904م) .
.17	قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، 1979م).
.18	القفطي ، علي بن يوسف: إنباء الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (دارالفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط:1، 1986م).
.19	د. محمد عيد ، الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون (القاهرة، عالم الكتب ط:1، 1979م)
.20	محمد فاروق النبهان ، الفكر الخلدوني من خلال المقدمة (مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر – 1998م)
.21	محمد فهمي حجازي : علم اللغة العربية (وكالة المطبوعات ، الكويت 1973م) .
.22	المسدّى ، عبد السلام : الأسس الاختبارية في نظرية المعرفة عند ابن خلدون (الشركة التونسية للتوزيع) .
.23	المسدّى ، عبد السلام: التفكير اللساني في الحضارة العربية (الدار التونسية للكتاب ، ط:2، تونس 1986م) ص208 – 237 .
.24	ابن مسكويه وأبو حيان التوحيدي : الهوامل والشوامل ، (القاهرة ، 1951م) .
.25	د. ميشال زكريا: الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون (بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط: 1، 1986م .
.26	ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن يعقوب إسحاق (ت: 428هـ) : الفهرست (دار السيرة، بيروت ط:2)
.27	وافي ، د. علي عبد الواحد: عبد الرحمن بن خلدون ، حياته وآثاره ومظاهر عبقريته (الهيئة المصرية العامة للكتاب 1975م).
.28	وُليد بن أحمد الحسين الزبيدي وزملائه ، الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة من القرن الأول إلى العصر الحديث، (سلسلة إصدارات الحكمة، ط:1، 2003م)

***